الجراحة عند الشعوب القديمة

قبل عهد التاريخ المدوّن

وفي مصر وبلاد الكلدان والهند والصين

الجراحة احدى الفروع الطبية التي مارسها البشر منذ أبعد ازمنة التاريخ. وقد مرّت عليها ادوار مختلفة وعصور كثيرة وهي تارةً في تأخر وانحطاط وطوراً في ترقٍ وازدهار حتى هذا العصر اذ خرجت فيهِ منتصرة ظافرة بفضل المكتشفات العلمية الحديثة فأصبحت لها تلك المكانة السامية بين طرق العلاج المختلفة

وكلمة «جراح» (Cheirourgus) مستعارة من اليونانية القديم ومعناها (الذي يعمل عملاً يدويًّا) كانت تطلق غالباً عند الكتاب اليونانيين بلا تمييز سواء على الطاهي، أو ضارب القيثارة، أو الطبيب الذي يقوم بعملية، حتى اوائل التاريخ المسيحي اذ فقدت تدريجيًّا معناها هذا المبهم العام واضحت حينئذٍ محصورة في الطبيب الذي يمارس شغلاً يدويًّا يقضي باستعمال الآلات الجراحية (كخياطة الجروح او تضميدها، او جبر العظم المكسور او ردّ المخلوع عنهُ الى مكانهِ)

ومما يجدر ذكره هنا ان التمييز الآن بين طبيب وجراح، الذي يبدو لنا اليوم طبيعيًّا واضحاً لم يكن موجوداً قديماً عند ما تأسست العلوم الطبية في اليونان بين القرن الخامس والرابع ق.م. فالمجموعة الابقراطية لا تشير في اي مكان لهذا الفرق بين من يداوي الامراض بالحمية والادوية والذي يعتني بالجرحى بيديهِ وآلاتهِ. لكن ازاء تقدم الجراحة الفني والصعوبة في معرفة تطبيقاتها التمرينية بالاختبار الشخصي من جهة، وازاء استعداد الشخص وامياله الخاصة لاجراء العمليات الدقيقة منها من جهة اخرى، جعل من هذا الاختلاط الحاصل حدًّا فاصلاً بين الطبيب والجراح وحصر كلمة «اخصائي» بهذا الاخير على ما نراه اليوم

وكما كان علم الطب وليد التجربة في أدواره الاولى كذلك كانت حالة ممارسة الجراحة التي ما لبثت إن بلغت عند اليونان في القرن الخامس ق.م. أعلى ما يمكن بلوغهُ من درجات الرقي والاتقان بانضمامها الى بقية العلوم الطبية. ويغلب على الظن ايضاً ان الجراحة قد كان لها شأنٌ خطير في ذلك العهد بتوحيد هذه الممارسات الطبية فاضافوا بذلك مجداً الى امجادهم الخالدة

ولا ينكر ان الباتولوجيا الجراحية كانت عندهم في اغلب الاحيان بسيطة ساذجة في شرح

لسبب الدلل والامراض لكنها مع ذلك كانت دقيقة مختارة من جهة وصف الجروح والكسور والخلع ومعالجتها بتالب من اللغة بديع. كما ان مدرستهم الجراحية بما فيها من دقة الملاحظة تركت آثاراً لا تمحى

ولكن ما درس تاريخ الجراحة في الماضي لا يوجد لديها سوى قطع تشريحية او آلات محفوظة او كتابات صورية عدا بعض مصنفات فنية مختلفة القيمة والمصدر. وأغنى الآثار المحفوظة بل النادرة لسوء الحظ هي تلك القطع التشريحية من الجماجم التي ترجع الى ما قبل التاريخ، لاسيما الادوات القديمة التي وُجدت في مصر وبعباي وهركولانوم

اما الكتابات الصورية (كبعض النقوش المصرية واليونانية) فتبدو غريبة في اشكالها اكثر مما هي مفيدة. إمَّا لأنها كانت تمثل بعض عمليات جراحية بسيطة كالختان أو الفصاد مثلاً، أو لأنها كانت قليلة الدقة في صنعها وسخيفة غالباً للتأويل والانتقاد

فلم يبقَ والحالة هذه سوى التصانيف الكتابية التي تمثل لنا كيفية ممارسة الجراحة عند القدماء وحتى عهد قريب منا. لكنها مع الأسف قليلة الوضوح في الوصف وناقصة الشروح في أكثر الاحيان لأن مؤلفيها يذكرون أحياناً تحت اسم واحد أشياء كثيرة متنوعة كان الأولى التمييز بينها. كما انهم يصفون بايجاز بعض العمليات التي كان يقتضي التفصيل فيها، وينقلون الواحد عن الآخر من دون ان يذكر صاحب التأليف المنقول عنهُ مما أصبح متعذراً اعطاء كلٍّ منهم ما يستحقهُ من الاهلية والاختراع أو الطريقة التي تنسب الى الواحد دون الآخر

١ — ممارسة الجراحة قبل فجر التاريخ وعند الشعوب الأقدمين

إن الحفريات التي أُجريت في لوزير (Lozère) بفرنسا من سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٨٤ قد اماطت اللثام للعالمين الفرنسيين پرونيير وبروكا (Prunières & Broka) عن وجود ١٦٧ مثلاً من الجماجم البشرية المثقوبة التي يرجع تاريخها الى العصر الحجري. ولدى الفحص الدقيق تبين انها كانت على نوعين: منها ما كانت عملية الثقب فيها أُجريت بعد الوفاة (وهذه لا تفيدنا من الوجهة الجراحية)، وأخرى ما كانت قد أُجريت قبل الوفاة كما ظهر من التئام جوانب عظم الجمجمة المثقوب (وقد عاش المريض بعدها مدة طويلة)، وأخرى أيضاً ما كانت قد أُجريت لهُ في الحياة وشفي حتى إذا لاقى حتفهُ عادوا فأقاموا من مكان العملية قطعاً صغيرة مستديرة لتكون لهُ بعد موته «عوذةً وحرزاً»!. وقد دامت هذه الممارسة حتى العصر النحاسي اذ أخذت تقلّ تدريجيًّا ثم زالت بزوال العصر التالي — الروماني

وفي سنة ١٨٩٤ كشفوا أيضاً في البيرو جماجم بشرية اخرى يرجع تاريخها الى ذلك العهد: منها ما كانت عملية الثقب فيها على النمط المتقدم ذكره، وأخرى ما كان عليها آثار ندوب عظمية بشكل (T) في الرقبة او قحف الرأس ناتجة عن كيّ بليغ بالنار. وحتى اليوم

لا تزال بعض القبائل من تلك البلاد محتفظة بعادات اجدادها الاقدمين كما ان هذه العادة (الكي بالنار) لا تزال مدرجة ايضاً في بعض انحاء الشرق وغيره

اما طريقة اجراء عملية البتر عندهم فكانت سواء بحك تدريجي للعظم بواسطة قطعة من حجر الصوان الحاد تستخدم كمقص ، او بضرب على المكان المقصود بحجر صوان خاص لهذه الغاية. وفي كلتا الحالتين ، كانت تنجح عملياتهم هذه كثيراً اذا بقيت السحايا الضامة سليمة

وقد تضاربت آراء العلماء في معرفة ما كان يرمي اليه الاقدمون من ممارستهم لهذه العمليات فمنهم من عزاها الى ازالة الالتهابات الموجودة في عظم الرأس ، وآخرون عزوها الى الشفاء من بعض امراض الجهاز العصبي كالصرع مثلاً ، وآخرون ايضاً زعموا انها للحصول على قوة سحرية جذابة. وفريق آخر رأى فيها آثار تكيل وعذاب او تضحية للآلهة في بعض طقوسهم الدينية

٢ — ممارستها في مصر وبلاد الكلدان والهند والصين

لم تختلف ممارسة الجراحة في هذه البلدان الا قليلاً عما كانت عليه عند الشعوب المتقدم ذكرها (قبل اتصال اهلها بسكان الغرب) — ماعدا الهند التي امتازت في ذلك العصر بجراحين كان يشار اليهم بالبنان والذين أبلغوا هذا الفن أعلى درجات الرقي والاتقان خلافاً للمصريين والكلدانيين الذين لم تكن عندهم جراحة بالمعنى الحقيقي اعني مجموعة منظمة من الباثولوجيا وفن معالجة الامراض لا سيما الكسور العظمية والمخلوعة ، أو الجروح باسلحة الحرب اسوة بأهل اليونان والهند

(في مصر) : كل ما لدينا من المستندات والدلائل المعروفة عن حالة الجراحة في ذلك العصر هو وجود بعض كتابات صورية وهيروغليفية ورسوم على الحجر والعاج ترجع الى خمسة وعشرين قرناً ق . م . وهي تمثل مناظر الختان وشقوقاً معمولة في العنق والاعضاء ، ثم ادوات يُرجح انها كانت جراحية . وممارسة التحنيط والموميات التي لا يزال اكثرها محفوظاً والتي يرجح تاريخ اقدمها الى الدولة الثانية عشرة . وهي بلا شك ذات شأن خطير من الوجهة التاريخية وتدلنا على حالة الجراحة في ذلك العهد. والختان في مصر كان اجبارياً عاماً وكان يمارس عند الجنسين في السن الرابعة عشر اي أنه كان فرضاً دينياً موروثاً من ماض بعيد خلافاً لما اعتقده بعضهم من أنه عادة صحية . ويغلب على الظن حسب قول هيرودوتس المؤرخ بأن المصريين هم الذين نقلوا عادة الختان لليهود والعرب ولو أنها اقتصرت عند هؤلاء على ذكورهم

وأقدم صورة كتابية معروفة حتى اليوم عما يختص بحالة الطب هي التي اكتشفت في طيبة بواسطة مستر أيبرز (Ebers) سنة ١٨٧٣ والتي ترجع الى خمسة عشر قرناً ق . م . وهي مجموعة مختلطة من وصفات كثيرة لمعالجة الامراض لكن هذا لم يرفع وقتئذ مستوى الطب عند المصريين الى الدرجة المتوخاة رغماً عن اختصاص كثير من اطبائهم بفروعه المختلفة

اما الادوات الجراحية والآثار التي اكتشفت في مصر سنة ١٩٠٩ فأبانت للعيان وجود

سكاكين مشرمة الشكل والحجم ، منها ما هو نحاسي محدَّب واخرى ذات نصال بشكل حسام . وثمة آخر من حجر الصوان الحاد كان يستعملهُ قدماء المصريين لفتح البطن وقت التحنيط . ثم كلاليب من حديد لسحب الدماغ من الأنف وأجهزة خاصة من خشب النخل لتثبيت العظام المكسورة عند جبرها . وعملية التحنيط كانت هكذا : يستأصل الطبيب اولاً المادة الدماغية من الأنف بواسطة كلاَّب خاص لهذه الغاية ثم يشرط البطن فالصدر بسكين من حجر الصوان الحاد . وبعد ان يقيم ما في هذين الجوفين من الاعضاء يُغسَلان ثم يملأ الجوف البطني من المرّ والقسر والطيوب المختلفة . وأخيراً يخاط البطن والصدر باعتناء تام وتنقعر الجثة مدة سبعين يوماً في مزيج من الملح وكربونات الصوديوم وتلف نهائيًّا بلفائف مطلية بالصمغ

والذي يدعو الى الدهشة والاستغراب هو أن يوجد على كثير من هذه الجثث المحنطة المحفوظة من عهد الدول الأولى حتى العهد البيزنطي آثار جروح وقروح والتهابات لا تزال بادية للعيان (كتدرن الفقرات مثلاً) والتعام ذات الجنب والصفاق ، والروماتزم المشوه الخ . .) مما يدلنا على أن البشرية لا تزال هي هي من الوجهة الطبيعية رغماً عن انقضاء ثلاثين أو اربعين قرناً بيننا وبين عصر الفراعنة ، كما أنها لم تتغير كثيراً من الوجهة العقلية والأدبية وشأن من مدنيتنا الحالية ومظاهرها الخداعة

﴿ في بلاد الكلدانيين ﴾ : المعروف عن حالة الجراحة والطبابة عند سكان هذه البلاد انها كانت بسيطة ساذجة ان لم نقل متأخرة جدًّا لانها كانت مشبعة بالمعلومات الفلكية ، والتفاؤل ، والاعتقادات بما فوق الطبيعة والسحر والطلاسم . واليك ما قاله فيهم المؤرخ هيرودوتس وفي مستواهم العقلي من جهة الطب : « يعرضون مرضاهم في الساحات العمومية لافتقارهم الى وجود اطباء فالناس الذين يمرون بالطريق يسألون المريض عن دائه ليعرفوا اذا كانوا هم ايضاً مصابين بنفس الداء ، او إذا كانوا قد رأوا اشخاصاً آخرين مبتلين به . وهكذا يتحادثون مع المريض ويشيرون عليه ان يتبع العلاج الذي نفعهم هم او الذي يعرفون انهُ افاد غيرهم . وليس مسموحاً ان يمرَّ احد بمريض ويبقى ساكتاً . . بل عليه ان يسأله بعض المعلومات عن مرضه » . وأهم مستند تاريخي عُرف حتى اليوم مما يختص بتمدن الشعوب السامية القديمة هو اكتشاف شريعة حمورابي في قرية «السوس» بالعراق (شوسن القصر في التوراة) سنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ بواسطة مستر مورغن والتي يرجع تاريخها الى نحو عشرين قرناً ق . م. واليك بعض بنودها عن ممارسة الجراحة في ذلك العصر حسب ترجمة الاب شايل (Scheil) سنة ١٩٠٠ :

١ — اذا عالج الطبيب رجلاً مصاباً بجرح بليغ بواسطة مخرز نحاسي وشفي ، او اذا ازال غشاوة عن عين المريض بذات الآلة وشُفيت عينهُ يتقاضى اجرة عشرة (سيكل) فضة

٢ — اذا داوى الطبيب جريحاً بمخرز نحاسي ومات الجريح ، او اذا فتح لأحدهم غشاوة العين

وأفقده بصره تقطع يده ٣ — اذا شفى الطبيب عضواً مكسوراً او ابرأ احد الاعضاء الداخلية المريضة يدفع المريض الى الطبيب خمسة سيكل فضية . اما اذا كان المريض فقيراً او مستخدماً فالأجرة تكون اقل فيما لو نجحت العملية . وبخلاف ذلك يدفع الى المريض تعويضاً مالياً »

ومن هذا يتضح لنا قدر المسؤولية الطبية في نص مهم كهذا خلافاً لاطباء وجراحي اليونان والرومان في ذلك العهد الذين لم يكونوا مقيدين بأية مسؤولية من هذه الوجهة . والويل للطبيب اذا مات المريض فالسيد الحرّ المطاق لا يُعوّض فلذلك كان جزاء الطبيب الموت العاجل كيلا يرحل المريض وحده الى الابدية !

﴿ في الهند ﴾ : ارتقت الجراحة في القدم عند سكان هذه البلاد ارتقاء باهراً فنافس الهنود اليونانيين في كثير من العلوم الطبية كالتشريح والفيزياء (الطبيعة) ، وعرفوا مفاعيل بعض المخدرات واستعملوها في بعض عملياتهم الجراحية . كما انهم اوجدوا كثيراً من الادوات الجراحية : مشارط ومناشير ومقصات ومجسات الخ وأجروا عمليات الفتق والتيصرية وعمليات العيون والأنف واستئصال الأورام السطحية . وثمة أمرٌ واحد مجادَل عليه ولم يبت فيه حتى الآن وهو ايهما أثر في الآخر من الوجهة العلمية العامة الهنود أم اليونان؟ ان كتاب سوسراتا (Susruta) الذي هو عبارة عن مجموعة طبية والذي يذكرنا بالمجموعة الابقراطية لم يرجع تاريخهُ حسب قول المؤرخين الاّ الى القرن الرابع او الخامس ق . م . وبما ان غزوة اسكندر الكبير التي أنشأت علاقة متينة بين التمدن الهندي والتمدن اليوناني ليست الا من سنة ٣٢٧ ق . م . نيغلب على الظن اذ ذاك ان الجراحة اليونانية التي كانت متقدمة على عهد اسكندر الكبير قد أثرت على الجراحة الهندية . وربما ايضاً تكون هذه النظرية بالعكس

﴿ في الصين ﴾ : كانت الجراحة في هذه البلاد معدومة تماماً قبل دخول الاوربيين اليها وكتب الصينيين الطبية كانت خليطاً من الأوهام الغريبة الشاذة والتماويذ والاغلاط الفادحة: مثلاً الحنجرة تفتح في القلب ! والنخاع الشوكي ينتهي في الخصية !! والكبد له سبعة فصوص ... كذلك الباتولوجيا : يوجد عشرة آلاف نوع من الحمّى . و ١٤ نوعاً من الدوسنطاريا !! ...

ومن هذا نستنتج مدى تأخر الجراحة والعلوم التشريحية عندهم ، لا سيما عند شعب لا يحب ان يرى منظر الدم او ان تُبتر احد الأعضاء او يجدع الجسم الحي . وما عدا هذا فالصينيون لم يكونوا يستعملون الاّ الدلك والحجامة والكي بالنار لا سيما الوشم الذي من شأنهِ على زعمهم ان يشفي انواع الامراض فكانوا يستعملون لذلك إبراً رفيعة طويلة يدخلونها في الجسم حتى في العنق والصدر والبطن . ولا يخفى ما في اجراء عمليات كهذه من الخطر

الفورة — العراق الدكتور عبده رزق